الفصل الثلاثون

لأجلك...

لحظات وجود عائشة ببيتهم مرت ثقيلة على قلب مها التي كانت قلقة على ابنتها من حديثها الجارح منذ أن تركتها لتكمل تعليم رُبا، فما أن غادرتا، حتى قالت لها في حزم:

-إياكِ أن يؤثر فيكِ كلام تلك المتعجرفة.

نكست رأسها، وقالت في حزن:

- أليست هذه هي الحقيقة يا أمي؟ وإلا ما كنت سخرية زملائي ولا ميداناً لحديث أحدٍ يوماً رغم أن بعضهم توقف عن ذلك بتعاملي معهم و...

قاطعتها وهي تحتضنها وتقول في حزن وألم:

-حبيبتي، لا تدعي اليأس والحزن يسيطران عليك هكذا، ستجرين العملية وتعودين كما كنتِ بإذن الله.

أرخت رأسها على صدرها لتحاول الشعور بالطمأنينة وهي تسبل جفنيها وتقول مقاومة ألمها:

- لن أفقد الأمل يا أمي وقد لاح أمامي؛ لكن هو ألم أصاب قلبي منذ أن أصبت ولا أستطيع نسيانه.

أمسكت بكتفيها وأرسلتها ثم نظرت إليها مستفهمة، وروت لها كل ما نقلته رُبا، صدمت ثم عقدت حاجبيها قالت بغضب:

-تلك المتعجرفة كانت تقصدك بكلامها إذن؟ أخبرتها بأن المهم هو أخلاق الفتاة ولم أدرك بأنها ستشتمك أمامي، سأرد عليها إن عادت إلى هذا الحديث مرة أخرى.

هزت رأسها وهي تزم شفتيها للحظات ثم قالت وعبرات تخنق كلماتها:

-لا تكوني بمستوى حديثها يا أمي، ولا تسمحي للألم أو الغضب بأن يدفعاك لتبادل ما لا يليق معها، أما أنا فلا تقلقي بشأني، ولا أريد أن أسبب الأذية لأحد بسبب إصابتي.

-لكن طارق...

-وإن كان يريد خطبتي رغم ما بي فليس من العدل أن أؤذيه معي، ثم إننا على كل حال مغادرون لهذه المدينة، ولابد أن ننسى أحزاننا لنواصل هذه الحياة.

-عزيزتي.

عادت لتضمها إليها، وهي تقول في حزن:

- ستأتي السعادة لدربك يوماً وستفرحين، دعواتي لك ولأخيك تحيطان بكما.

رغم كل محاولات صمودها إلا أن الدموع أبت إلا أن تهرب من عينيها، فهربت في حسرة وحزن ويأس، حسرة لعدم بلوغها السعادة بمن غرس كل جمال بقلبها وأحبها من كل قلبه، وحزن على نفسها من قسوة المجتمع التي لا ترحم أحد، ويئس من تحقيق أحلامها ككل فتاة بمثل عمرها، دفنت وجهها بصدر أمها، وسمحت لدموعها بالهرب، علَّ ذلك ينتشلها من كل تيارات الحزن المضطربة وخيبات الأمل التي أرادت أن تهوي بقلبها، فلا تمعن الغوص من لجته المظلمة.

حين عادت عائشة مع ربا وحدهما إلى البيت بعد المغرب، وجدت طارق في الصالة يذاكر في إحدى محاضراته، وابتسم لهما، كان يعلم بأمر زيارتها لمنزل ضياء، بادلته الابتسامة وهمت لتغادر الصالة عائدة إلى غرفتها، إلا أنه استوقفها وهو يسألها قائلاً:

-هل تحدثتِ إلى ضياء؟

صمتت للحظات وهي تشير لرُبا بمغادرة الصالة لتبدل ملابسها ففعلت، ثم التفتت إليه وهي تزم شفتيها وتقول في الضيق:

-لا رغبة لي في لقائها بعد الآن.

بهت لقولها ونهض قلقاً وهو يسألها:

-لِمَ يا أمي؟ هل حدث شيء بينكما؟

أشاحت بوجهها عنه وهي تعدل حقيبتها على كتفها، وتقول:

-قلت لك بأني لم أحب تلك الفتاة ولن أحبها، منظر وجهها يزعجني، ومنزلها يصبني بالنفر والاختناق، لن أذهب إليهم بعد الآن، إني لا أحتمل حتى رؤيتها.

بدا الألم على وجهه وهو يستمع لكلماتها فنكس رأسه، يائساً، فلما لاحظت عليه ذلك تذكرت ما قالته ضياء لها، لابد أن تقنعه برأيها بعيداً عن عبد الكريم، وألا تخبره بأمر رحيلها حتى لا يبادر بحلول سريعة لأجل ذلك، اقتربت منه، وأمسكت بيده أجلسته إلى جوارها على الأريكة، وهي تقول محاولة استجماع هدوئها:

– بني، ألست تريدني أن أفرح وأسعد بزواجك؟ كيف تريد تحقيق ذلك وأنا لستُ سعيدة حتى بمجرد رؤيتها؟ في وسع والدك أن يزوجك إياها رغما عني؛ لكنك لن تكون سعيداً إن ظللتُ أنا حزينة، أليس كذلك يا بني؟

شعر بأن كلماتها قد أصابت قلبه في مقتل، ازداد وجعاً، وهي لا تزال تمسك بيده وتهزها وتقول في رجاء محاولة حثه على تأييد قولها:

– بني، أرجوك انسى أمر ضياء، وأعدك بأني سأجد لك فتاة أفضل منها ستسعد معها بإذن الله، اهتم بدراستك وحسب الآن ولا تشغل نفسك بأي أمر آخر.

ابتلع غصة الألم بصعوبة وهو يراها تخيره بين سعادته وسعادتها، كيف له أن ينسى من أعادت له قلبه وصارت هي قلبه؟ من أعادت له روحه التي سلبها منه غروره وتكبره، كيف يستطيع أن يحطم قلعة الحب التي سكنت فيها حبيبته في لحظات قليلة ولمجرد كلمات، كيف يستطيع أن يعيش قلبه بعيداً عن ملاذه الآمن؟

لو أنها شعرت بشيء يسير من آلام قلبه أو رأت جراحه الذي افتعلتها خناجر كلماتها لعدلت عما قالت له، لم تكن تدري أنها تعذبه بقسوة وتقتل أعماقه ببطء، أي عذاب هذا الذي يسكن العاشق ويجعله ينازع روحه بين واقعه ورغبته؟ استحوذت قسوة الأفكار على نفسه، أنسته كل وصايا أبيه؛ لكن صدى جملة واحدة تردد عميقاً في وجدانه:

(ثق برحمة الله وعدله)

فلم يحر جواباً، ولم يستيقظ من دوامة حزنه إلا حين أقبلت رُبا بعد أن استبدلت ملابسها وهي تقول في رجاء:

- لِم لا تحبين ضياء يا أمي؟ أنا أحبها وسأكون سعيدة إذا تزوجت أخي وعاشت بيننا.

فوجئا بقولها، فقالت عائشة في غضب:

-متى سمعتِ هذا الكلام يا رُبا؟

صمتت حين رأت ملامح الغضب في وجهها، وبدا الخوف عليها وهي تضع يدها على فمها، ما كان عليها أن تفلت تلك الكلمات من فيها، بينما انتشل الموقف طارق مما كان فيه، وقال في عصبية وانفعال:

- ألم تسمعي سؤالها أيتها الفضولية؟

غرقت في بحر الصمت من شدة خوفها حين انتقلت عدوى الغضب إليه، ونهضت عائشة وقالت وهي تقترب منها:

-هيا، تكلمي.

انهمرت الدموع في خوف من عينيها، وقالت متلعثمة مرتجفة:

-منذ ... أيام.

أمسكتها من أذنها وهي تقول في سخط:

- لن تذهبي إلى ضياء بعد الآن، لقد انتهت دراستك معها، وإياك أن تخبري أحداً بهذا.

هزت رأسها وهي تقول باكية في ألم وخوف:

- أرجوكِ أمي، لا تحرميني من رؤية ضياء، وأعدك بأني لن أخبر أحداً بعد الآن.

انتبها إلى آخر كلمات قالتها، فقال طارق في حدة وهو ينظر في عينيها:

- من أخبرته؟ لا تقولي لي بأنك أخبرتِ ضياء؟

ازدردت ريقها بصعوبة، وصاح بها في نفاذ صبر:

-أجيبِ.

قالت مرتجفة :

-نعم، أخبرتها .

- مشاغبة، هذه الأمور يجب ألا تخرج خارج حدود البيت.

قال ذلك صارخاً في غضب، هربت من أمامه مبتعدة حين أحست بأن أصابع عائشة قد ارتخت حول أذنها، ثم تنهد بعمق وقال وهو يحك رأسه في انفعال وخجل:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، يا إلهي ... ضياء تعلم الآن بجلية مشاعري نحوها، كيف سأتمكن من مواجهتها أو طلب شيء منها بعد الآن؟ تباً لتلك الصغيرة المشاكسة.

أما عائشة، فقد شردت كل الشرود عن ولديها حين أصابتها صدمةٌ مما سمعت، ضياء حين ردت عليها كانت تدرك بأنها تقصدها بحديثها، ازدادت ذهولاً من رصانة ردها وهدوئها رغم الحديث الجارح الموجه إليها، كيف لا تحتمل حديثها وهي من تحملت حديث زملائها

أمامها في سبيل المضي في دراستها؟ احتملت دون أن ترد على إساءتها بمثلها! شعرت بصدق امتداح عبد الكريم وطارق لها ولجوهر روحها الفريدة.

أية روح تلك كانت روحها، روح تقاوم أمواج الألم بصبر كبير.

اجتمع بقلبها ألم الذنب الذي اقترفته بحقها، وألم الحسرة الذي لا بد قد أصابها، لاشك من أنها كانت تقول لنفسها:

-ما ذنبي أن شوهت الحرب وجهي وقد كنت جميلة قبل قدومها حتى تنفروا مني وتكرهوني هكذا؟

غصت بعبرة حزنها، وجثم وزر ما اقترفته على صدرها بشدة، حين تنطلق سهام الكلمات دون هدفٍ فلا رجعة لها وتصيب بطيش؛ بل وترتد آلام الندم لمطلقها بعد فوات الأوان، انهارت على الأريكة وظلت عيناها ساهمة واجمة تحدقان للبعيد، وانتبه طارق لردة فعلها، فعاد يسألها في قلق:

- أمي، ما بك؟ هل حدث بينك وبين ضياء شيء؟

تنهدت بعمق ثم نظرت إليه وقالت بهدوء:

-لا تقلق، دعني أسترح قليلا.

ازداد شعوره بالقلق وهو يتبعها ببصره حين نهضت لتغادر الصالة متجهة نحو غرفتها وهي تتمتم لنفسها في حزن:

-ليتني لم أقل شيئاً، ليتني سألتُ وحسب، ليتني فعلت ما قال لي عبد الكريم، ماذا سأفعل الآن؟ يالفظاعة ما فعلتِ يا عائشة.

ثم أردفت قائلة في حيرة:

-ضياء، أي نوع من الفتيات أنتِ؟

لم تستطع أبداً نسيان ما كان طوال تلك الليلة، وظل عالقاً بفكرها، حتى بعد أن عاد عبد الكريم للمنزل وأخبره طارق حين اجتمع به في الصالة قبيل موعد العشاء، بينما كانت تجهز السفرة بغرفة المعيشة وتستمع لهما، ثم قال لرُبا في ضيق:

-ما كان عليك فعل ذلك يا رُبا.

قال طارق في ضيق مماثل:

-فتاة مشاغبة، لن تتغير.

نكست رُبا رأسها، وقالت في ندم:

-آسفة أبي، أنا أحب ضياء وسررت كثيراً لما سمعت، فلم أحتمل كتمان ذلك وأخبرتها، وأيضاً لا أريد لأمي أن تمنعني من زيارتها.

اقتربت عائشة منهم، وقالت بهدوء:

-رُبا، ضياء الآن مشغولة بامتحاناتها لن تكون قادرة على تعليمك.

بدا الحزن على وجهها، في حين قال عبد الكريم مبتسماً وهو يربت على كتفها ويقول:

-لا تقلقي يا رُبا، ستتحقق رغبتك ورغبة أخيك وتصبح ضياء فرداً من عائلتنا بإذن الله.

ابتسمت في سعادة وعانقت والدها، فقبلها وهو يقول لها:

- لكن إياك أن تتحدثي مع أحد حول هذا بعد الآن.

هزت رأسها موافقة، أما طارق فقد تأمل سعادتها وعلى وجهه ابتسامة باهتة وهو يتذكر ما قالته له أمه، فقال في نفسه:

-ليت السعادة تكون ببراءتك وبساطتك يا رُبا.

سأله عبد الكريم حين انتبه لشروده:

-ما بك يا طارق؟

استيقظ من شروده وهو يقول مبتسماً:

-لا شيء أبي.

ثم نظر لزوجته وهو يقول:

-ترى، هل عرفتِ ما تريدين يا عائشة من زيارتك لمنزل ضياء؟

قالت محاولةً إخفاء ألمها فتعثرت كلماتها:

-ليس بعد؛ لكن.. سأحاول.

انتبه لما بدا عليها، قال لها في قلق:

-ما الأمر عائشة؟

هزت رأسها وهي تقول:

-لا شيء، هيا لنتناول العشاء.

- لم أنتِ حزينة هكذا؟ هل حدث شيء؟

هزت رأسها، وقالت:

- قلت لك لا شيء.

نهض طارق من مجلسه وقال في قلق:

-لا يا أمي، هناك أمر ما يسبب لك كل هذا الحزن، أخبرينا.

التزمت الصمت لبرهة وهي تنظر لربا، فأدركا مقصدها ثم قالت:

-سأخبركما في الوقت المناسب.

قال عبد الكريم:

-حسنا لاحقاً نتحدث.

ارتبكت قليلا ثم قالت مبتسمة:

-لا شيء لأخبركما به الآن، سأذهب لزيارة عائلة ضياء بعد انتهاء امتحاناتها، أشعر بأن زيارتي لهم في هذا الوقت غير مناسبة، سأربك الفتاة وأزعجها في هذا الوقت ولا سيما وبأنها تعرف بالأمر.

هز عبد الكريم رأسه، وثم قال وهو ينهض:

-حسناً كما تريدين.

أما طارق فلم يبدُ عليه الاقتناع بما قالته وخصوصاً أنها تريده أن ينساها، لكن الأمر الأهم الآن وقد عرفت بأن ضياء تعلم بأنه يريد الزواج بها، فكيف سيكون تصرفها معها؟ هذا ما دار في خلده، ازداد قلقه وهو يدرك تماما بأن أمه لن تحبها بل تريد إبعادها عنه.

أما عائشة، فألم ما اقترفته كان يلازمها، شعرت بضرورة معالجة ما فعلت بطريقتها، فضياء وعائلتها مغادرون من المدينة، ولابد لها أن تصلح خطأها؛ لكن كيف سيتم لها ذلك؟ وهل يجب عليها أن تعدل عن رأيها بعد أن رأت حب كل أفراد عائلتها لها، وما رأته من دماثة خلقها رغم وقاحتها؟ هل ستوافق على هذا الزواج إن ربط هذا الأمر بإجرائها العملية لإصابة وجهها؟ وهل ستعود جميلة حتى تمنع كل الألسن التي قد تحيط بها وتمسهم جميعاً بسببها؟ كان ذلك أقسى خاطر يمر بها، قررت أن تفكر في الأمر بروية حتى تستطيع اتخاذ القرار المناسب.

منذ ذلك اليوم، رافق الارتباك والاضطراب نفسه كلما رآها أو سمع صوتها، ليس لما يشعر به نحوها وحسب، بل لإدراكها بحقيقة مشاعره نحوها؛ لكن ما هي مشاعرها نحوه بعد معرفتها بما في نفسه؟ هل ستقبل الزواج به أم إن هذا الأمر سيزعجها ولا سيما بأنه لم يقدم لها منذ بداية السنة إلا الإساءة؟

لم يكن يدري كيف يستطيع معرفة ذلك، كان يراها كل يوم هادئة على عادتها ولا يبدو عليها شيء، ربما هي أيضاً لا ترى عليه أية انفعالات تبدي ما يعتمل من اضطراب في أعماق نفسه.

وبدأت الامتحانات النهائية، فبذل جهده لأجل طموحه والسعي لتحسين مستواه الدراسي.

ولما خرج من القاعة بعد الامتحان رآها تسير مع بعض زميلاتها وهي تحادثهن مبتسمة كعادتها، تذكر محاضرة كانت قد وعدته بإحضارها له، تردد في محادثتها إلا أنه قال في نفسه:

-لابد علي ألا أرتبك، أنا بحاجة لتلك المحاضرة لأجل الامتحان القادم.

ثم أبعد ارتباكه واقترب منها وهو يقول:

- ضياء إذا سمحتِ.

توقفت للحظة ملتفتة إليه وهي تقول في سرعة:

-اعذرني.

وتابعت خطاها مع زميلاتها، فظل واقفاً مكانه والوجوم يعتليه لتصرفها.

هل أبدى ما أزعجها، أم أنها منزعجة من معرفتها بما في نفسه نحوها، أم أن أمراً حدث بينها وبين أمه؟ كان يود طلب المحاضرة منها لا أكثر، فإذا بها لا تصغي إليه ولو قليلاً كما مضى، شعر بالقلق والحيرة حين مرت تلك الخواطر بفكره، فتمتم:

-ما الذي حدث بالضبط؟

واستيقظ من حالته حين سمع صوتها وهي تقول بهدوء وحزم:

- آسفة، هذه المحاضرة التي طلبتها في آخر يوم من الدراسة.

رآها قد عادت إليه وهي تناوله بعض الأوراق وتقول متابعة:

-لستُ بحاجة لها، بإمكانك أخذها.

تناول منها الأوراق وهو يقول:

-هل هناك ما أساءك مني يا ضياء؟ أراك منزعجة.

- لا، لا شيء، لا تشغل بالك.

-آسف لأن طلبي بلغك بطريقة لا تليق عن طريق رُبا.

اضطربت نفسها هنا، وارتبكت وهي تشعر بعبرة حزنٌ تكاد تخنقها، فردت بسرعة وبلهجة متلعثمة :

-لا تقلق، لم يحدث شيء، الأفضل لك أن تنتبه لما هو قادم.

ثم ابتعدت عنه مسرعة، فهتف:

-ضياء، لحظة من فضلك.

أراد أن يستوقفها، وانصرفت من فورها دون انتظار أية كلمات أخرى، تملكه القلق للهجتها وتصرفها، ود لو أن في استطاعته الحصول على إجابتها في تلك اللحظة؛ لكن الأمر صعب، شعر بارتباك في أعماقها لم يفهمه، وربما لم تعد ترغب بمحادثته بعد ما عرفت بما يكنه نحوها. أما هي، فقد دمعت عيناها ورافقها الألم بعد السعادة التي غرستها بقلبها، وأدركت أن قربها منه لن يزيده إلا ألماً خصوصاً أن والدته ترفضها وتكره رؤيتها، قالت بحزن في نفسها وهي تمسح دموعها:

-الأفضل لك أن تنساني لتواصل لحياتك، فارتباطنا ضربٌ من المستحيل.

عاد إلى البيت مبكراً، ووجد والدته وأخته جالستين بالصالة، سلم عليهما ثم جلس على الأريكة المقابلة لوالدته، وقال في حزم:

-أمي، ماذا حدث بينك وبين ضياء؟

فوجئت بحزم قوله، قالت:

-قلتُ لك بأني سأخبرك في حينه.

هز رأسه وهو يقول في إصرار:

- لا أمي أخبريني، تركتني رُبا في دوامة الارتباك التي منعتني عن محادثة ضياء لأيام، واليوم حين حادثتها وطلبتُ منها بعض الأوراق شعرت بأن الفتاة منزعجة من شيء ما، أمي أخبريني.

صمتت للحظة ثم قالت:

-حسناً، أمهلني إلى المساء وسأخبرك أنت ووالدك.

قال في انفعال:

-ولِمَ إلى المساء؟ أمي لم أعد أحتمل ذلك.

قالت بحزم وهدوء:

-قلت لك سأخبرك، اصبر إلى المساء وحسب...لم يكن يريد ذلك؛ لكنه هز رأسه مؤيداً والقلق يعتصر فكره، وأطلق تنهيدة قوية قبل أن ينهض عائداً إلى غرفته، أما عائشة فقد كانت ترقبه وتفكر فيما يتوجب عليها فعله لتنهي هذا الأمر.

أيام قليلة وستكون هذه المدينة محطة من محطات الحياة وجزء من ذاكرة الزمن، جمعتها بأجمل اللحظات وأتعسها، أناسٌ ساعدوها وكانوا لها سنداً، وأناسٌ كانوا لها عثرة أرادوا أن تقع في مستنقع الأخطاء تارة واليأس تارة.

أما هو، فكان مزيجاً من الاثنين، بداية ترافقت بالكراهية والألم والشماتة لتنتهي بشعورها بالسعادة والتضحية والحب، كانت تذاكر في محاضرتها وهي تشرد بفكرها بين الفينة والأخرى حين تشعر بوخز جراح قلبها، تنهدت، عليها تجاوز الألم مهما كان.

استيقظت من شرودها على قرعٍ بالباب نهضت وهي تتوقع قدوم رُبا لتدرسها فهي لأيام لم تأتِ، فلما نظرت من النافذة وجدتها عائشة وحدها، استغربت ووجلت من قدومها دون رُبا، وتساءلت عما تريد، ثم أسرعت وأخبرت والدتها، قالت مها في ضيق:

-ابقي مكانك، أنا سأفتح لها الباب.

أمسكت بيدها وقالت بحزم:

- أمي، إياك أن يتملكك الغضب.

- سأفعل يا ابنتي، لستُ من يحب افتعال المشكلات مع الآخرين.

ثم أسرعت تنزل الدرجات لتفتح الباب لها مرحبة، فشكرتها ثم دلفت معها إلى حجرة الضيوف، وبعد لحظات قالت عائشة:

-أين ضياء يا مها؟ أريد أن أحادثها قليلاً.

أحست بأن طلبها لابنتها لن يكون لخير، فقال بلهجة لم تخلُ من الحدة:

-ولِم تريدين ضياء؟ أرى بأن رُبا ليست معك، إذن فلا حاجة لوجود ابنتي.

قالت في رجاء:

-أريد أن أحادثها قليلاً فقط، أرجوك.

اندهشت لرجائها ومع ذلك لم تطمئن لها، نادت على ابنتها، ولما دلفت ضياء مرحبة بها، تأملت عائشة وجهها للحظات، لم يبدُ عليها الغضب أو الانفعال منها؛ بل كانت عادية تماماً، ازداد الألم الجاثم في صدرها وهي ترى ذلك، ولما جلست سألتها قائلة:

-هل رُبا بخير؟

- نعم لا تقلقي، أجلت أمر دراستها لأجل امتحاناتك.

فابتسمت وقالت:

-الحمد لله، أرجو أن تهتمي بها...

قاطعتها عائشة وهي تقول:

-لم آتِ إلى هنا لأجل رُبا، أريد أن...

وصمتت ضياء لقولها في حيرة فهي لا تتوقع منها حديثاً حسناً بعد كلامها الجارح ذاك، بينما ازداد الضيق على وجه مها وهي تعتقد بأنها ستعيد حديثها الجارح مرة أخرى، فقالت:

- ابنتي، أنا أعتذر عما بدر مني تجاهك.

ذهلتا لقولها وهي تتابع قائلة في ندم وألم:

-كنتِ تدركين بأني أقصدك بكلامي في آخر يوم قابلتك فيه، أخبرتني رُبا بكل ما قالته لك، ومع ذلك لم تردي علي بسوء، بينما أنا تماديت في إساءتي، أرجوك سامحيني..

قالت مها بحدة:

-الأسوء ليست الإساءة وحدها؛ بل أن تأتيك إلى عقر دارك.

طفى الحزن على وجهها، وهي تقول:

-أنتِ على حق.

ثم صمتت للحظات قبل أن تستطرد قائلة:

-أرجوكما سامحاني على ما بدر مني.

ابتسمت ضياء وقالت:

-لا عليكِ سيدتي، لقد سامحتك.

- حقاً؟؟

هزت رأسها وكذلك مها التي قالت مبتسمة:

-والأجمل هو أن يعترف الانسان بخطأه، سامحتك يا عائشة.

ابتسمت عائشة لهما في سرور، وقالت:

-أشكركما.

ثم ران صمت قصير عليهن قبل أن تقطعه عائشة وهي تقول في تردد:

-أما بالنسبة لطلب طارق فقد...

وصمتت للحظات بدا جليا لهما عدم موافقتها وترددها في إعلان رغبته بنفسها، قالت مها موقظة إياها من شرودها:

-ألم تقل لك ضياء أن عليه ألا يحزنكما مقابل سعادته؟ عزيزتي، يجب أن تكونوا جميعاً سعداء باختيار طارق وإلا فإن سعادته لن تتم.

دارت دوامة الصراع بين ضمير عائشة وقلبها وهي تقول متلعثمة :

-في الواقع...

قالت ضياء:

يجب أن تحاولا معه، فوجهة نظركما حكيمة، وأنا على كل حال غير مناسبة لطارق.

ظل الوجوم على وجه مها وعائشة وهما تحدقان بها وهي تقول ناكسة رأسها:

- أنا أحترم طارق وأقدره كثيراً، ولكنه سيُظلم معي، فهو له مستقبل كبير بعد والده حفظه الله وأطال عمره، أما أنا، ففتاة ظلت ألسن السخرية تجري وراءها بسبب تشوه وجهها، لا أدري، لِمِ الفتاة دون غيرها عرضة لأن يعلن عن نقصها بكل سهولة وتكون ميداناً للحديث، ويجب أن تكون كاملة في كل شيء مع إن الكمال لله وحده، لهذا...

قطعت عبارتها حين خنقتها عبرة حزن لم تستطع أن تحبس دموع الألم في عينيها وهي تقول:

-أخبريه بأن مصلحته ليست في الارتباط بواحدة مثلي، وسيقتنع بهذا.

ظل الوجوم على وجه مها لقول ابنتها، في حين ازدادت عائشة صدمة من ردها وارتعبت في آن واحد.

أكانت دموعها حزناً على نفسها، أم أن قرار رفضها لطلب طارق كان يؤلمها؟
هل أحبته كنّت له في قلبها مثل ما كنه لها في قلبه؟
رغم كل أحزانها، أكانت تضحي بسعادة قلبها بقولها هذا وآثرتهم على نفسها رغم علمها بحبه لها؟

شعرت بأن ألم ضميرها التي أزاحته قبل لحظات قد عاد مجدداً وهي تستمع لحديثها، لقد كانت مترددة في قرارها، فإذا بضياء تحسمه لها وتقرأ كل ما في فكرها وتصفعها بصفاء قلبها مجدداً.
وحين كادت تهم بمغادرة الغرفة أمسكت بها واحتضنتها وهي تبكي وتقول والدموع رقراقة في عينيها:
-يا لجمال ما في أعماقك يا ضياء، يا لي من امرأة غبية.
ذهلت لتصرفها وهي تقول متابعة:
- ابنتي، عرفتُ الآن كيف بضياء قلبك أحبتك ابنتي رُبا، وكيف أضأتِ لولدي طارق درباً أبصر به للحياة لوناً آخر وفتح قلبه على أشياء لم أعرفها إياه.
أبعدتها قليلاً عنها، وقالت وهي تنظر في عينيها:

-وهل أخبرتك بأنني لست موافقة على اختيار طارق؟ لم تقولين هذا عن نفسك؟ طارق لم يخطئ أبدا في اختياره.

بدت الدهشة على وجهها وعائشة تقول:

-ضياء، لم أعد أحكم على ما أصاب وجهك، بل على ضياء قلبك الذي علمني الآن كيف تسمو الروح وكيف تضيء للآخرين الدرب دون انتظار جزاء، لذا أرجو منك أن تفكري في طلب ولدي طارق بروية، سأفرح كثيرا بهذا.

ابتسمت رغم دموع ألمها التي انهمرت على خديها وهزت رأسها نافية، وهي تقول:

-أرجوكِ سيدتي، لأجله ولأجل أن أرد جميله الذي توجني يوماً...

ولم تكمل عبارتها وهي تمسح دموعها ثم نهضت من فورها مستأذنة، علقت نظرها بها بحزن منتظرة أن تقول شيئاً غير هذا، كانت تأمل أن تعدل عن قرارها، لكنها غادرت الغرفة بصمت وأنين قلبها الحزين كان يتردد في أذنيها، شعرت بالألم لأجلها وبثقل خيبة الأمل التي ستحملها معها، فتحول بصرها إلى مها التي رأتها وهي تكفكف دموعها، قالت عائشة:

- مها، أرجوكِ، دعيها تتريث في قرارها، أعلم أني تسرعت فيما قلت، أرجوك.

هزت رأسها وهي تقول:

-للأسف كان هذا قرارها منذ أن علمت برغبته في التقدم لها، سيعاني طارق وكذلك أنتم مثل ما عانت هي من أحاديث الناس، هكذا أخبرتني.

- لكن ضياء ستجري عملية لتعود كما كانت، ألم تقولي هذا لي؟

– بلى ستفعل؛ لكننا لا ندري ما هي نتائجها خصوصاً أنه قد مضى على إصابتها أكثر من عام، لهذا حسمت ضياء أمرها، لم تكن تريد أن تربط مصيره مستقبله بها.

تنهدت عائشة في ألم، ثم قالت:

-أرجو ألا أكون سبب ذلك.

عادت تهز رأسها وهي تقول:

-لا تقلقي، ذاك هو قرارها، ولو أنها لم تكن تحترم طارق وتقدر مكانته لما رفضت طلبه لأجله، ووافقت مهما كان الأذى الذي سيتعرض له.

ثم نكست رأسها وقالت بحزن متابعة:

-للأسف، نحن نعيش بمجتمعٍ يحكم على المرء بظاهره لا باطنه وبمكانته لا بأخلاقه فيسنون ألسنتهم بالحديث في أعراض الناس، من النادر أن نجد أناساً تقدر ذلك مثلكم.

– تأخرتُ جداً حتى أدرك ذلك.

ربتت على كفها وقالت محاولة الابتسامة ومقاومة حزنها:

– لا عليك يا عائشة، سيكتب الله الخير لطارق في مكانٍ ما، وأنا متفائلة لأجله، حاولي إقناعه فقط.

هزت عائشة رأسها والهم الكبير يجتاح صدرها من كل ما حدث، وكيف سيكون موقف طارق عند سماعه لقرار ضياء.

حين حل المساء، كان طارق قد بدأ يعد الدقائق ويتحين لحظة اجتماع والدته به وبوالده، وبعد العشاء أمرت عائشة رُبا أن تستعد للنوم و تذهب لغرفتها فأطاعتها، في حين قالت له بحزم:

-انتظرنا في غرفتك وسآتي إليك بعد أن أتحدث لوالدك.

تطلع إليها بدهشة وقلق، وازدرد ريقه بانفعال حين رآها تطلب من والده أن يدخل غرفتهما، كان بدوره مستغرباً؛ لكنه امتثل لها، ودخل معها، ظل يراقبهما في توتر حتى أغلقا الباب خلفهما، وبقي مكانه في الصالة دون أن يستطيع الجلوس أو الاستقرار بمكان لشدة توتره.

ولما صارا بمفرديهما وجلسا على سريرهما، قال عبد الكريم قلقاً:

-هذا لا يبدو مبشراً، ما الأمر يا عائشة؟

صمتت وهي تحاول مقاومة ألمها، ثم روت له تفاصيل ما حدث والندم بادٍ على وجهها، قال بعصبية:

-ألم أطلب إليكِ ألا تتقدمي لها الآن؟

- نعم، ولكن الفتاة عرفت من ابنتك وأردت إصلاح خطأي.

- قلتُ لك ضياء فتاة من جوهر رائع، ها هي تعلمك كيف تتعاملين، كيف تريدين منها أن توافق بعد أن كسرتِ قلبها بكل ما فعلته، لا حول ولا قوة إلا بالله، هداك الله.

ردت في استياء:

-حاولت معها يا عبد الكريم، حاولت، رغم أنها قبلت اعتذاري؛ لكنها رفضت طلب طارق، أخبرتني والدتها بذلك، كما أنهم سيرحلون من المدينة.

زفر في ضيق وغضب وهو ينهض من مكانه، وأخذ يفكر وهو يدور بالغرفة، بينما ظلت عائشة تنظر إليه، وحين طال صمته سألت في قلق:

-ماذا سنفعل لطارق يا عبد الكريم؟

ضرب كفيه وهو يقول في انفعال:

-هذه هي المشكلة، والمشكلة أيضاً أنهم سيرحلون حتى نتدارك الأمر لبعض الوقت، لو أن الأمر سار بيسر كنا انتظرنا ضياء لحين إجراءها للعملية، حتى إن فشلت، لم يكن يهمني شيء فيها إلا خلقها، والأهم حب طارق لها.

أخذت تضغط على أصابع يديها في توتر وتقول:

-ما الحل؟ أنا خائفة على طارق.

هز رأسه وهو يقول في تحسر:

-ما عاد الخوف يجدي الآن.

اقترب من الباب وفتحه لينادي على طارق، فوجده بالصالة وأسرع نحوه فور فتحه للباب، كان ينتظر نداءه بلهفة بل رآه ينظر إلى عينيه ليحاول معرفة ما حدث، وحين لم يستطع الوصول لشيء نظر لأمه فرأى سحنة الحزن عليها، انقبض قلبه، وتألم في أعماقه لما سيواجهه؛ لكن الأمر لا بد أن يحسم، أجلسه إلى جوارها وظل واقفاً، فسألها مباشرة في قلق:

-أمي، ماذا حدث بينك وبين ضياء؟

نظرت لعبد الكريم الذي أشار لها بالحديث فارتبكت، لم يعد لها مهرب من ذلك، وحاولت أن تكون نبرتها حازمة وهي تربت على فخذه وتقول محاولة منحه الشجاعة والاستعداد لما ستقوله له:

-اسمعني، مهما يكون ما سأقوله لك فعليك أن تكون راضياً.

ازداد توتره وهو يستمع لكلماتها تلك، وما تلاها كان الصاعقة التي حطمت قلبه حين قالت له:

-ضياء، ليست موافقة.

ثم أخبرته بما روته لها مها، وهو في حالة صدمة، هل ما تزال ضياء حزينة لما بدر منه وتضع مصلحته عذراً لها؟ شرد حزيناً بفكره عنهما وقد داهمهما القلق لخرسه، قالت له قاطعة شروده:

- بني، أرجوك لا تحزن، أنا واثقة من أن ضياء تحبك وتكن لك مكانة في نفسها كما فعلت أنت، ولكن...

أجابها وهو يحاول مقاومة حزنه وتيارات دموعه:

-إذا كانت تحبني مثل ما ذكرتِ، فلِم سترفضني؟

-فعلت هذا لأجلك، كانت خائفة أن تصبح ميداناً لأحاديث الناس مثل ما كانت هي.

تهدم سد دموعه وانهمرت على خديه دون وعي منه، لم يحتمل الألم المضرم في نفسه وهو يقول والعبرات تغص به:

-إنها مستعدة للتضحية يا أمي لأجل من تحبهم، أنا أدرك ذلك، فلماذا لا نستطيع أن نفعل مثلها؟ لماذا لا نكون مثلها؟ لا يهمني أحاديث الناس، أو إلى أي وقت ستظل تطاردني حتى ولو إلى أرذل العمر، لم يكن يهمني نجاح العملية التي سيجريها خالها أم لا، كل ما يهمني هي ذاتها.

ازدادت وجعاً بحزنه، لم تكن تدري كيف تخفف عنه وطأة الحزن وانكسارة القلب، أمسكت بيده وقالت بهدوء :

-لا تبكِ هكذا، عليك احترام قرارها.

زم شفتيه ليكبت هيجان حزنه وهو يهز رأسه في أسى، وعبد الكريم يراقبه والحرقة تأكل قلبه، أية كلمات يمكن أن تجدي معه بعد الآن؛ بل ربما حتى الأيام والسنون لن تستطيع محوها عن فكره وقلبه، قالت له في رجاء:

-طارق، أرجوك اهدأ.

مسح وجهه وتنفس بعمق لفرط اختناقه وجذب يده برفق، ثم نهض بصمتٍ متوجهاً إلى غرفته وهو يسير مترنحاً وبخطوات وئيدة، نهضت من مكانها وأمسكت بيد عبد الكريم وقالت في قلق:

-عبد الكريم، أرجوك افعل شيئاً.

هز رأسه وقال في يأس:

-وماذا عساي أن أفعل، لا يمكنني فعل شيء، وما حدث لابد أن يحدث وقد رأيتِ تعلقه بها.

-تحدث إلى شادي، ربما...

قاطعها غاضباً:

-لم يعد الوقت مناسباً لإعادة المحاولة؛ ولكن إذا...

لكنه قطع كلماته وكظم غيظه وهو يقول:

-أستغفر الله العظيم، قدر الله وما شاء فعل، قدر الله وما شاء فعل.

وخرج من الغرفة محاولاً تهدئة غضبه، تاركاً إياها تصارع الندم والألم والقلق.

أما طارق، فما أن خلا بنفسه في غرفته حتى تهاوى على كرسيه وأسند ظهره إليه وهو يفكر، لقد فقد الأمل، تمتم في حزن:

-لستُ ألومك يا ضياء، أنتِ غرستِ في نفسي أشياء جعلت قلبي يزهر بربيعك، أما أنا، فماذا قدمتُ لك؟ لم أقدم لك إلا أشواكه لتجرح قلبك وتسيل أنهار الألم، هل فات الأوان لأداويها؟ لا يهم إن أحببتني أم لا، ما يهمني هو ألا أجعلك تحزنين مني أبداً.

لم يستطع أن يكبت حزنه طويلا فعادت دموعه تنهمر بحرقة مجدداً، لتلهب وجعه أكثر من أن تخمده وتنطلق من صدره زفرات الألم، فاضطربت أنفاسه واحتقن وجهه لفرط بكائه، لقد ترك روحه المكلومة تفعل ما بدا لها، بكى ما شاء له البكاء، إلا أن الدموع وإن طال أمدها لا تستطيع جرف ذكريات حبيب احتل القلب واستوطنه، هز رأسه في حسرة وهو يقول:

-هل سأعد ساعات الفراق منذ الآن؟

عدت الأيام سويعاتها التي كانت تجري مسرعة، يتنافس فيها عقرباها مترقبين لحظة التقائهما بكل شوق، أما هو فكان يرى الزمن عدوه الأول ليعلن له في القريب رحيل حبيبته إلى الأبد.
الامتحانات تمر عليه سريعة جداً كأن الأيام تريد التخلص منها، بينما كان هو يرتجيها ليستوعب عقله ما يتوجب عليه تجاهها من مذاكرة وتقديم أفضل ما لديه ليفرح والديه، ووقتاً ليرتاح قلبه من مكابدة ما هو فيه من آلام وشجن
اشتد قلق عبد الكريم وهو يرى طارق صامتاً واجماً منذ ذلك اليوم يعيش في السكون والهدوء والعزلة مقلقة، أما رُبا فقد سمح لها والدها بزيارة ضياء لوداعها قبيل يوم من موعد رحيلها، كانت هي الأخرى حزينة كحزن أخيها، فلم يدر ماذا يجب أن يفعله لأجلهما.
أما في الكلية، كان طارق يرى ضياء على عادتها هادئة في تصرفاتها وحديثها مع زميلاتها، لكنها حين تنتبه لنظراته نحوها يبدو عليها الارتباك، فتبعد بصرها وترحل من المكان مسرعة..
بقدر ما كان الألم في أعماقها، كانت رغبتها في أن تراه يمضي في دربه بعيداً عنها أفضل له فصارت تتجنب محادثته.
أما هو، فبمجرد أن تقع عيناه على عينيها تبوحان له بشجون ألمها الأسير بصدرها، أدرك بهذا مشاعرها نحوه..

لقد امتزجت روحيهما في مكانين مختلفين، فكانت كلا منهما تسمع أنين الأخرى محاولة مواساتها لكن بروح الحب حين عجزتا عن اللقاء تحت سمائه.

و في صباح اليوم الأخير، وحين كان عبد الكريم بمكتبه قدم شادي إليه، رحب به بأحلى ترحيب، ثم قال له:

-كيف إصابتك؟ أرى أنك قد أزلت الضماد.

حرك شادي ذراعه وهو يقول:

الحمد لله لقد شفيت تماماً.

-الحمد لله..

قال مبتسماً وهو يناوله ظرف:

- كنت أود شكرك على كل ما قدمته لأجلنا وهذه كل الديون الذي علينا و هأنذا أسددها إليك.

فابتسم وقال وهو يأخذ ظرف النقود:

-لم أكن أتمنى أن تعيدها؛ لكن لأجل أختك ووعدي لها بأن أجعله ديناً عليكم.

-شكراً لك سيدي، كما أني وددت أن أودعك قبل رحيلي الذي سيكون بعد ساعات.

هنا اختفت ابتسامته، وهو يقول:

-منذ زيارة رُبا ليلة أمس لكم، لم تستطع أن تهدأ، كنتُ أتمنى أن تطول فترة إقامتكم بيننا.

-لا تقلق، سنكون على تواصل بإذن الله، سأجعل ضياء تتحدث معها دائماً.

-بني، هل لي أن أسأل سؤالاً؟

- تفضل..

- هل هناك ما أساءكم في ولدي طارق لتردوا طلبه في التقدم لخطبة أختك؟

هز رأسه وهو يقول مبتسماً:

-سيدي.. ليس في خلق طارق ما يسيئ لأحد بعد ما تغير؛ بل يسرنا، وأتمنى أن يستمر على ما هو عليه، ولكن لأجل مصلحته وألا يتعرض للأذية التي تعرضت لها أختي.

- لم يكن هذا الأمر يهمنا كثيراً، بقدر ما يهمنا معدن أختك الفريد ورقي خلقها، فأحاديث الناس لن تنتهي لسبب أو بدونه.

-أشكر لك كلماتك سيدي، سيكون لطارق شأن كبير في المستقبل ونحن في انتظار سماعه عما قريب.

نهض مثله وصافحه وهو يقول:

- بإذن الله، وأتمنى ذلك حقاً، شكراً لكل ما قلته يا ولدي.

ثم نهض شادي وصافحه مودعاً إياه وهو يقول ويمد يده:

-أسعدني التعرف عليك وأشكرك على كل شيء.

صافحه عبد الكريم بحرارة وهو يقول مودعاً:

-وأنا كذلك بني.

حطت الامتحانات رحالها أخيراً، وطوت صفحتها حين دقت لحظة انتهاء وقت الامتحان الأخير، فرح الجميع بذلك، فصاروا يتحادثون عن خططهم لأجل الإجازة وقضائها بمرح، إلا طارق الذي كان يدرك أن نهايتها تعني آخر يوم سيلقاها فيه.

شاهد الفتيات يجذبنها إلى خارج القاعة مبتسمات وكانت سحر معهن وقد تحسنت إصابتها كثيراً، فقالت لهن مبتسمة:

-رويدكن، ما الأمر؟

قالت إحداهن وهي تغمز لها:

-هناك مفاجأة لك؟

- مفاجأة؟!

- هيا بسرعة.

و أسرعن خارجات وعلى وجوههن الابتسامات ، وأراد طارق الخروج وهو يضع أوراق محاضراته في حقيبته حين سمع أحد زملائه وهو يقول لآخر:

-الفتيات سيقمن حفلة لوداع لضياء.

هز رأسه وهو يقول:

- صحيح، سمعت بأنها ستغادر اليوم..

-إنها حقا فتاة متميزة منذ أن عرفناها هنا؛ لكني لم أرتح لتعاملها أبداً، مخيفة حقاً.

ابتسم صديقه وقال في سخرية:

-تقصد مزدوجة.

وضحك الشابان معا وهما ينصرفان، تملكه الغضب من حديثهما وأراد أن يعاتبهما؛ لكن الألم سرعان ما احتواه وأوقفه مكانه، أليس هذا هو اللقب الذي منحه لها منذ أول يوم؟ وها هي راحلة ولازال البعض يذكر السيئ منها ويستمر في السخرية منها..

بقى طارق لوحده صامتاً أثقله الكدر وخدره الألم.

- أردتُ إبعادها بنفسي فإذا بها تبتعد رغماً عني، لِم هذا؟؟ هل أودعها هكذا بكل بساطة؟ أأودع قلبي؟... يا إلهي.. ما هذا الأمر الصعب.

شعر بألم كبير في صدره وهو يقول في حزن:

- ليتني ما عرفتها أو قابلتها، ليت قلبي لم يعرف شيئا اسمه حب، ضياء، لماذا؟

سقطت دمعة من عينه حين هب من مكانه وهو يغادر القاعة ..

وفي قاعة أخرى كان أجواء الفرح، إذ دخلتها ضياء فرأت كل زميلاتها قد أقمن لأجلها مائدة احتفال صغيرة، فابتسمن لها جميعهن، وقالت إحداهن وهي ترحب بها:

-أهلا بك يا ضياء، سررنا بوجودك بيننا.

- شكرا لكنَّ.

فقالت أخرى:

-أسوأ شيء يمكن أن يحدث هو أن يتبع المرء المظاهر متجاهلاً جوهر الأشياء، وهذا للأسف ما حصل معنا وواجهناك به يا ضياء، نعتذر لك عن كل إساءة بدرت منا ومن الجميع ونرجو أن تتقبلي هديتنا المتواضعة لك هنا.

ابتسمت لهن وقالت:

-لا عليكن، ما مضى قد انتهى، لعلي في البداية تأثرت بذلك، لكن ما قدمتن لي من مساعدة وتعامل يشعرني بالسعادة، وستكون هذه السنة وجميعكم من الذكريات التي لا يمكن أن تنسى.

قالت سحر:

-ليتك تبقين خلال فترة الإجازة لنقضيها معا.

-عله خير يا عزيزتي، لكن سنظل على تواصل جميعنا.

فابتسم الفتيات في سرور، وبدأ الحفل والجميع يتحدث عما في نفسه تارة، ومنهم من ألقى شعرا و خواطر وطرف روحوا فيها وابتهجن جميعهن، ظلت الابتسامات مشرقة والضحكات تصدح وصفت الأجواء ونفسن عما في أنفسهن وقدم بعضهن هدايا تذكارية لها، ولما انتهى الحفل ودعتهن ثم ودعت أساتذتها برفقة سحر وقد كان لقاؤها الأخير بهم.

وحين كانوا على وشك مغادرة الكلية، قالت سحر لها بحزن:

-ستغادرين مباشرة إلى عدن؟

هزت رأسها فعانقتها بقوة وهي تقول ودموعها تنهمر من عينيها:

- سأشتاق إليك كثيراً ولكل أيامنا هنا، لن أنساك.

دمعت عيناها وقالت:

-وأنا كذلك، سنظل على اتصال دائم عزيزتي، لا تقلقي.

وبعد وداع حار، أرسلتها سحر ثم غادرت الكلية حين وصلت سيارة والدها وهي لا تزال تلوح بيدها وتودع ضياء التي جلست على كرسي انتظار بساحتها منتظرة قدوم سيارة أخيها بدورها.

بينما هي كذلك، كان شريط الذكريات يمر سريعاً أمامها وهي تتأمل المكان حولها، منذ أول يوم وطأت قدماها الكلية وها هي على وشك مغادرتها، لاح أمامها موقف طارق حين أسقط العم صلاح وكانت النتيجة أن صفعته، دوت صدى صفعتها تلك اللحظة في أذنيها وصوت عتابها له، فارتبكت في خلدها وشعرت بالخجل من تصرفها بعد أن علمت بحبه لها، ثم تذكرت حين أنقذها من الحريق، ومعرفتها بما في قلبه نحوها ليدفعه ذلك لتقدم لخطبتها، مرت ذكرياتها معه كطيف سريع، قالت لنفسها مبتسمة:

- مواقف كثيرة جمعتني به واحتوى معظمها الألم؛ لكني سعيدة لأنه تغيره إلى الأفضل.

- هذا لأنك أعدتِ إلي إنسانية قلبي.

انتفضت على صوت قريب منها فنظرت نحوه لتجد طارق يقف على مقربة منها ناحية يسار الكرسي، لقد سمع حديثها، وحين التقت عيونهما ازداد ارتباكها وازدادت حمرة الخجل على وجهها، بينما قال هو متابعاً بحزم:

- لم أكن أفكر إلا بنفسي وما يرضيني، وحين رأيتُ كل تحدياتك عرفتُ كيف تكون الإنسانية، وكيف تكون التضحيات لأجل من تحب، وأخبرتك بأنك تركت بصمة من الصعب أن تزال، كنتُ على استعداد للتضحية لأجلك، وعلمتِ بمكانتك عندي ومع ذلك...

هدأت ضياء قليلاً من انفعال نفسها وهي تقول بحزم:

- لأجلك ولأجل أن تستمر فيما أنت فيه عليك أن تواجه الحياة بنفسك، أقدر لك ما تحمله نحوي من مكانة، لكن مصلحتك تكمن في رحيلي، فأكمل دربك الجديد الذي بدأته.

أخفض رأسه قليلاً حين بدأ الألم يكوي قلبه، كم كان يتمنى لو يستطيع منعها، أن تتمهل في قرارها ولا تضحي بقلبيهما معاً، تمنى لو أنه يستطيع مصارحتها بصراعات نفسه لكن الحياء منعه، وأدب العرف يقيده، ليست هذه طريقة تليق بحبيبة توجها ملكة لقلبه.

ولم يكن الألم يعتصره وحده؛ بل هي أيضاً، حبه لها رغم ما بها جعل شخصه يستحوذ قلبها ويكون منارة للسعادة في قلبها وبهجة لحياتها القادمة، ثم يصطدم خيالها بالواقع المؤلم، أي حبٍ هذا الذي لن يزيده إلا وجعاً بسببها؟ وتنزل مكانته أمام أقرانه وأهله بسبب تشوهها ويكون ميداناً للأذى كما كانت هي؟ خافت عليه من المستقبل المؤلم الذي سيعيشه بسببها، حاولت إغلاق باب قلبها بهدوء وتناسي ما كان فإذا به يأبى ذلك، ويظل بين جنباته خالداً عصي النسيان أو الهجر، تجاوزت ألمها حين رأته يهز رأسه ويقول لها بحزم:

- نعم، لن أحيد عنه بعد أن أبصرته بإذن الله.

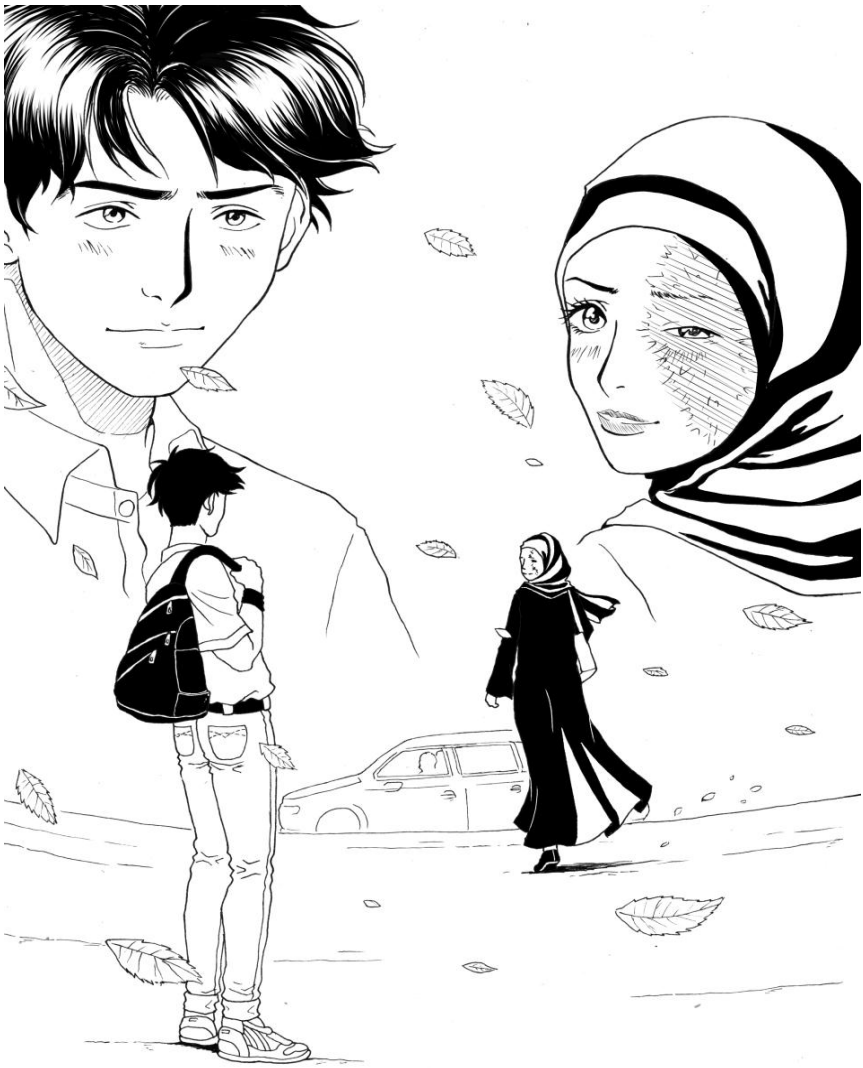

ابتسمت محاولة مقاومة ألمها هي الأخرى، وتقول:

- أتمنى لك كل التوفيق يا طارق، وأن أسمع بأنك قد صرت رجلاً له شهرته مثل أبيه.

ابتسم وقال:

- وأتمنى لك ذلك أيضاً وأن تكوني متفوقة كما عرفناك..

هزت رأسها، ثم سمعت صوت بوق سيارة نهضت لتلمح سيارة أخيها قرب مبنى الكلية، فودعت طارق وهي تقول في حزم:

-امضِ، فالحياة ستعلمك الكثير.

فهز رأسه وهو يقول مبتسماً:

-أشكرك على كل شيء.

وغادرت الكلية ومع أهلها، حاملة حقيبة ذكريات لها هنا بهذا المكان، غادرت لا تدري هل ستعود ذات يوم أم لا، غادرت وهي تقول في نفسها في حزن حين هربت دمعة من عينها وهي تنظر إليه من النافذة وتقول:

- لن أنسى أنك أعدت لي روحي ذات يوم، لن أنسى ذلك ما حييت، أتمنى لك كل خير..

أما طارق، فقد ظل في مكانه واقفاً حتى اختفت من أمامه، هب النسيم لحظتها طاوياً صفحة شخص عزيز من ناظريه كأنما هو من حملها بعيداً عنه، فقال لنفسه:

– تأخذ الحياة أرواحنا المؤطرة بأجسادنا، بين سهولها ووديانها، بين سمائها وأرضها، صعوداً وهبوطاً، لتختبر بحكمتها صبرنا، تمسُّكنا بوجداننا وعواطفنا.

زوابعك قاسية أيتها الحياة، لا تنفضين المشاعر إلا من تلك الأجساد ذات الأرواح الهشة.

أيها القلب، أين كنت حين كانت أمامك؟ تغرس خصالها في صحراءك، لِمَ لم تزهر ربيعاً في أوانه؟

لقد رحت.. رحت .. حين عاد ربيع قلبي..

ثم ابتسم لنفسه رغم حزنه وهو يقول:

– سيبقى كل ما تعلمته منك، ستبقى حياتي تزهر بربيعك إلى الأبد، سيبقى حبك و حبي وتضحيتي لأجل أهلي حتى ولو رحلتِ؛ لكنك لن ترحلي عن قلبي.

تمـــــت بحمد الله

صيف ٢٠١٦

*****